عالم على رأس أوجاق جزائر الغرب

قراءة تحليلية لولاية القاضي المولى علي أفندي سنة 1025 هـ/ 1616 م في ضوء المصادر المعاصرة

د.فارس كعوان. جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2. الجزائر.

مقدمة:

لا تزال الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر رغم ما كتب عنها مجالا واسعا و خصبا للبحث، وذلك بالنظر لخصوصيتها وثراءها بالأحداث التاريخية في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية.

ومن بين االمسائل الهامة في هذه الفترة التعرّف على حياة بعض العلماء الأعلام الذين تركوا بصماتهم في عصرهم، ولم تّسلّط عليهم كتب التاريخ و التراجم الضوء وأهملتهم، مما جعل من الصعوبة بمكان تناولهم كمواضيع بحثية، مما جعل الباحثين يضربون صفحا عنها ويتوجهون نحو مواضيع أخرى ثرية بالمادة الخبرية.

وقد اخترنا التطرق لموضوع ولاية القاضي المولى علي أفندي على رأس أوجاق جزائر الغرب لكونه حدثا فريدا من نوعه في تاريخ الجزائر خلال الفترة العثمانية، رغم أن مدة حكمة لم تزد عن ثلاثة أيام ، وذلك أن تعيينه في حد ذاته على رأس الأوجاق القوي في غرب المتوسط، والذي له مكانته المميزة لدى الباب العالي يجعلنا نقف طويلا أمام هذه القضية.

والمطلع على أوضاع العصر يجد أن فئة العلماء التي ينتمي إليها المولى علي رغم تمتعها بامتيازات كبيرة في تلك الفترة، إلا أنها لعبت دورا استشاريا فقط، ولم تشارك في الحكم بطريقة مباشرة، وتعيين هذا العالم حاكما على البلاد هو شذوذ عن القاعدة.

وتأتي هذه المساهمة لتسليط الضوء على فترة ولاية هذا العالم الشهير في عصره، الذي تولّى حكم الجزائر في عهد الباشوات، وسكتت غالبية مصادر الفترة عن إعطائنا تفاصيل دقيقة عن حياته، مما اضطرنا للاعتماد على مادة مصدرية شحيحة جدا محاولين استقراء ما جاء فيها في ضوء المنهج التحليلي.

قراءة في مصادر الموضوع:

تُعدّ مسألة المصادر من بين أهم المسائل المطروحة من قبل الباحثين في الفترة العثمانية بالجزائر، فرغم طول الفترة إلا أن ما كتب عنها قليل جدا، ولا يعكس مطلقا زخم الأحداث التي عرفتها، و قد واجهتنا هذه المشكلة عند كتابة هذا الموضوع، فالمصادر التي تشير إليه نادرة جدا، و جل اعتمادنا كان على ثلاث مصادر معاصرة:

أولها رواية عبد الكريم الفكون: [1640 م] الذي استضاف ذلك العالم في منزله ووصفه بما يليق به وتحدث عن مكانته بين العلماء وتعظيم السلطة له.

والرواية الثانية التي استثمرناها هي لمؤرخ تونسي هو حسين خوجة[1732 م] الذي كتب هو الآخر أخبارا هامة تخص هذا العالم وتحدّث عن مكانته في تونس ومصيره.

وأما ثالث الروايات المصدرية التي اعتمدنا عليها فهي لابن المفتي [1755 م] الذي اكتفى بذكر ظروف تولية هذا العالم وعزله من عسكر الأوجاق.

وقد حاولنا الرجوع لعدد من المصادر الأخرى كرحلة ابن حمادوش، والزهرة النائرة، وغيرها، لكننا وجدنا أنها لم تتطرق أبدا إلى هذا الموضوع.

من هو المولى علي:

من خلال بعض الشذرات المتناثرة في المصادر، حاولنا أن نُعدّ ترجمة مقتضبة لهذا العالم الذي لم يرد له ذكر في كتب التراجم، وحتى غالبية المصادر التي أرخت للفترة العثمانية بالجزائر لم تتحدث عنه[341].

ومن بين المسائل المُحيرّة عند دراستنا لهذا العالم اختلاف المصادر حول أصله، والعبارة التي أثارت انتباهنا هي تلك التي أوردها المؤرخ التونسي حسين خوجة[1732 م] الذي كتب عنه قائلا:"ومنهم المولى علي أبو الحسن المولى علي أفندي **أصله من الجزائر من أولاد الترك**"[342] وبهذا يكون المولى علي حسب حسين خوجة من كراغلة الجزائر، والمعروف أن الكراغلة كانوا ينتمون من جهة أمهاتهم إلى أسر حضرية ودينية معروفة تعهد بتربيتهم وتكوينهم فيها، حتى يحصلوا على أعلى المناصب الدينية كالقضاء والإفتاء.

لكن عبارة من أبناء الترك التي أوردها حسين خوجة قد تحمل أيضا معنى آخر هو أنه من العلوج، ولا تعني بالضرورة أنه كرغلي، والمعروف أن هؤلاء العلوج كانت لهم مكانة معتبرة في تلك الفترة، وتولّى العديد منهم الحكم، ومن ثمة فإن تولية المولى علي في هذه الحالة تبدو طبيعية.

لكن ما الذي جعل المؤرخ التونسي حسين خوجة يورد تلك العبارة ؟

لعل السبب هو مكانته المعتبرة في الجزائر وتونس، ممّا جعل حسين خوجة يعتقد أنه قد يكون من أبناء الترك الذين تولى عدد منهم السلطة في عهده، وعلى رأسهم حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية بتونس.

ولكن بالرجوع إلى منشور الهاية للفكون الأقرب زمنيا إلى المولى علي نجده يكتب عنه:

" أتى من باب السلطنة الأحمدية، **من الموالي**" [343] ولو كان من أبناء الترك كما قال حسين خوجة، لما أغفل الفكون الإشارة إلى ذلك، كما أن ابن المفتي الذي اهتم بأخبار العلماء الكراغلة –وهو منهم– لم يذكر أن المولى علي من أبناء الترك[344].

و أما حمله للقب المولى، فربما يعود لانتمائه للطريقة المولوية ذائعة الصيت في الدولة العثمانية حينذاك، والتي تنسب لجلال الدين الرومي[345]، كما يبدو من خلال جملة من المعطيات أنه من الأتراك، ومن الأسر العلمية

---

[341] – لا يفوتنا أن ننوه هنا بالجهود المميزة لصديقنا الباحث الأستاذ خير الدين سعيدي المقيم منذ مدة باسطنبول، الذي بحث في عدد من المصادر العثمانية عن ترجمة لهذا العالم، لكن للأسف لم تخصص له كتب التراجم حيزا ولو بسيطا رغم شهرته في عصره.

[342] – حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق: محمد الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975، ص 169.

[343] – عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 225.

[344] – ابن المفتي حسين بن رجب شاوش: تقييدات في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، ترجمة: فارس كعوان، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 46.

[345] – إياد محمد حسين و عامر محمد حسين: الرقص الصوفي ورمزية الحركات الراقصة المولوية أنموذجًا" مجلة مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية جامعة الكوفة / كلية التربية، مج 4، ع 3، ص 78.

والثرية النافذة لدى الباب العالي، ويذكر حسين خوجة ويتبعه في ذلك السنوسي أن المولى علي انتقل من الجزائر إلى اسطنبول، وهناك حصل على منصب الباشوية، ليعود مرة أخرى للجزائر ليصبح حاكما عليها، ومنها إلى تونس لتولي القضاء الحنفي بها.

مكانته العلمية وعلاقاته بعلماء عصره:

كان المولى أبو الحسن علي أفندي **علاّمة** كما وصفه حسين خوجة[346]، ووصفه الفكون بأن:" له معرفة ونجابة وقوة عارضة، مشاركا في كل العلوم، وعنده كتب جمة" أي له مؤلفات كثيرة.[347]

لكن المصادر لم تشر لا لمكان دراسته، ولا إلى شيوخه،والغريب أننا عند بحثنا عن مؤلفاته في بعض الفهارس ككشف الظنون لم نجد ذكرا لها وله، لكن من المؤكد أنه قد تلقى تكوينا علميا متميزا على يد شيوخ عصره، حتى استطاع تبوء تلك المكانة العلمية المعتبرة، و صار معروفا في الأوساط العلمية في تلك الفترة في كل من الجزائر وتونس .

تمكّن المولى علي بفضل تلك المكانة العلمية من نسج علاقات قوية مع علماء عصره من الجزائريين والتونسيين، وتشير المصادر إلى علاقته مع ثلاثة من العلماء المشهورين في وقتهم وهم:

علاقته بالشيخ عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية:

كانت للمولى علي علاقة علمية متميزة بالشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني أشهر علماء الجزائر في العهد العثماني، وهو صاحب المؤلفات الشهيرة، أهمها على الإطلاق : منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية.

وكان معروفا عن الشيخ عبد الكريم الفكون التواصل العلمي مع الكثير من معاصريه من العلماء، كالشيخ أحمد المقري، و الشيخ سعيد قدورة، و علماء بيت ساسي البوني ، وارتبط بعلاقة جيدة مع أبناء محمد بن علي المجاجي.[348]

ومن خلال ما أورده الفكون في منشور الهداية نستطيع أن نجزم أن علاقته بالمولى علي كانت وطيدة، فقد ذكر أن هذا الأخير كانت له فيه محبة صادقة، ومن عبارة" قال لي ذات مرة" نفهم أن الرجلين قد التقيا عدة مرات، حتى أن المولى علي ترك أصحابه وأسبابه في البحر قصدا لزيارة الشيخ الفكون لما سمعه عنه من أخبار، لكن هذا الأخير لم يذكر ما إن كانت له مراسلات مع هذا العالم أم لا، وإن كنا نعتقد أنهما قد يكونا تراسلا في مسائل علمية، وأن الفكون قد قرأ له ما كتب، حتى وصفه بتلك الصفات.[349]

علاقته بأبي الحسن علي بن محمد بن سيدي البهلول المجاجي:

---

[346] – حسين خوجة: المصدر السابق، ص 169.

[347] – عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 225.

[348] – أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1986، ص ص 97 – 102.

[349] – عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 225.

يفهم مما أورده الفكون أن المولى علي كان على علاقة جيدة مع أبي الحسن علي بن محمد بن سيدي البهلول المجاجيي الذي اجتمع به في دار الشيخ عبد الكريم الفكون لما دخل الجزائر سنة 1616.[350]

وينتمي الشيخ علي أبهلول لأسرة علمية قديمة، فهو أبو الحسن علي بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن سيدي علي بن أحمد بن عبد الله بن يدر بن سعيد بن الولي الصالح الشاذلي الطريقة أحمد بن عبد الله صاحب المقام المعروف غرب مدينة الشلف[351].

نال أبو الحسن علي البهلول العلم في مسقط رأسه على جملة من علماء عصره ، واشتهر بنظم الشعر كوالده وأخيه عبد الرحمن، كما أنه عرف بتضلعه في الفقه فقد وصفه المقري بالفقيه، ارتحل الى الحجاز لأداء فريضة الحج، فمر على قسنطينة والتقى هناك بالشيخ عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية، وصفه الفكون بأنه كان فطنا لقنا صاحب شعر كثير وفصاحة وفهم وله إنشاءات شعر كثير " وارتحل الى تلمسان سنة 1010 هـ/ 1610 م والتقى هناك بالمقري الذي رافقه مع عدد من العلماء الى مدرسة أولاد الإمام[352].

وكان له صيت واسع لدى علماء عصره، ومن بينهم المولى علي الذي ربط معه علاقة وطيدة، واجتمع به في دار الفكون حين سفره للحجاز، ومكث معه أياما يتدارسون مختلف العلوم، و ترك الشيخ أبو الحسن علي البهلول عددا من المؤلفات من بينها تقييد في ظهور الإمام المهدي الفاطمي،حيث كان قد ظهر شخص ادعى انه المهدي.[353]

علاقته بالعالم التونسي الشيخ ساسي نوينة:

كان للمولى علي أيضا علاقة علمية بالعالم التونسي الشيخ ساسي نوينة الذي طلبه لنيابته في قضاء تونس بعد تعيينه قاضيا حنفيا للبلاد .[354]

والشيخ ساسي نوينة هو أبو عبد الله محمد ساسي بن أبي عبد الله محمد الأنصاري الشهير بنوينة الاندلسي، من أشهر علماء تونس في الفترة العثمانية، وكان مهيبا معظما لدى الحكام، كما كان حسب حسين خوجة " فقيها مشاركا متفننا محدثا صاحب حفظ وإتقان وأمانة " الذي أضاف أنه كانت له إجازة لرواية صحيح البخاري لا يوجد من مشايخ العصر من ليس في إجازته سند منها" أي من الشيخ نوينة"، وقد ولاّه القاضي المولى علي نيابة القضاء لثقته فيه وتقديره لعلمه.

وكان الأتراك العثمانيون منذ إلحاق تونس بالدولة العثمانية يُعيّنون القضاة من بلاد الترك فيقضي القاضي بتونس ثلاث سنوات ويستبدل بغيره ، و لمّا كان هذا القاضي على المذهب الحنفي، وأهل تونس على المذهب

---

[350] – المصدر نفسه. ص 225.

[351] – أبو حامد المشرفي : ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، مخطوط، ص 28.

[352] – فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية،كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014/2013، ص

[353] – عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 225.

[354] – حسين خوجة: المصدر السابق، ص 169.

المالكي، احتاج القاضي الحنفي الوافد من الدولة العثمانية إلى إقامة نائب من المالكية يقضي بمحضره، فيكون ذلك النائب من أمثل العدول الموجودين.

واستمر العمل على ذلك إلى أوائل الدولة الحسينية، فكان أول من ولي القاضوية من علماء البلاد الشيخ ساسي نوينة الأنصاري الأندلسي أكرهه علي أفندي لما وفد من دار الخلافة العثمانية إلى الحاضرة التونسية بخطة القضاء، فطلب نائباً عالماً فلم يجد أعلم من الشيخ ساسي المذكور.[355]

و كتب حسين خوجة حول هذه القضية قائلا عن المولى علي أنه:" لم تطب نفسه بنائب من علماء الوقت إلا بالشيخ ساسي نوينة، فطلبه للنيابة فأبى، فراوده فامتنع، فقال له: آخر مرة إن لم تتول النيابة لافتين بقتلك على مذهبك". وعند ذلك وليها ولازمها إلى أن توفي.[356]

وهذا يدل على اعتراف المولى علي بالمكانة العلمية للشيخ ساسي نوينة وتميزه عن كل علماء الحاضرة التونسية، وحاجة المولى علي له في نيابته في مهمة القضاء الصعبة، وهي خطة تتطلب من صاحبها قوة الشخصية و الإلمام بجملة من العلوم.

الظروف الدولية والمحلية لتوليه حكم الجزائر:

تولى المولى علي حكم الجزائر بتعيين من السلطان العثماني أحمد،[357] وهو السلطان العثماني الرابع عشر، والذي تولى الحكم من سنة 1014 هـ/1603 م إلى وفاته يوم الأربعاء 23 ذي القعدة سنة 1026 هـ/ 14 نوفمبر 1617 م .[358]

تميز عهد السلطان أحمد بالاضطرابات السياسية والحروب، حيث كتب محمد فريد بك واصفا الوضعية:

" وكانت أركان الدولة غير ثابتة في كافة بلاد آسيا، ونار الحرب مستعرة على حدود العجم شرقا، و النمسا غربا، وكانت الحرب مع العجم شديدة الوطأة في هذه المرة، لتولّي الشاه عباس الشهير قيادتها."[359]

يضاف إلى كل هذا الاضطرابات الداخلية والثورات التي قادها كل من جان بولاد الكردي، والأمير فخر الدين الدرزي الذي تزعم ثورة عدد من القبائل اللبنانية ضد الأتراك[360].

ورغم كل هذا فقد كان السلطان أحمد " من أجل الملوك حزما وعزما "[361] كما أنه كان رجلا مثابرا، يباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعا في ملابسه، كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة والقيادة، فقد استعان

---

[355] – المصدر نفسه، ص 184.

[356] – المصدر نفسه، ص 169.

[357] – عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 225.

[358] – مصطفى أرمغان: التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عبد القادر عبد اللي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2014، ص 94.

[359] – محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 169.

[360]– Le Vte De la Jonquiere: Histoire de l'empire ottoman depuis les origine jusqu'à nos jours, Paris, librairie Hachette et Cie, 1914 , p 226

[361] – إبراهيم بن عامر العبيدي المالكي: كتاب قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان، طبع بمصر سنة 1317 هـ/ 1899 م، ص 114.

بوزرائه ومستشاريه للقضاء على هذه الفتن[362]، وكان محبا للعلم والعلماء، ناظما للشعر وله ديوان لحنت بعض قصائده تغلب على أبياته النزعة الدينية، ويبدو تأثره بالمولوية شديدا من خلال بعض الأبيات.[363]

هذا عن أوضاع الدولة العثمانية، أما عن أوضاع الجزائر فإن العهد الذي عاصره المولى علي عُرف في تاريخ الجزائر بعهد الباشوات 1587-1659.

ففي عام 1587 بدأت مرحلة جديدة، حيث عُهدت إدارة الجزائر لباشوات يُعيّنون لمدة ثلاث سنوات يرسلهم الباب العالي من اسطنبول.[364]

وقد وجد هؤلاء الباشوات أنفسهم في مواجهة الأوجاق الذي يرأسه الآغا، هذا الأخير الذي يقوم بالحفاظ على النظام في الأوجاق وتسوية المسائل الداخلية، يساعده في ذلك كاهية وديوان منبثق مباشرة من الأوجاق يجمع الضباط الأساسيين، ويساعده أيضا مجموعة من الشواش الأتراك المكلفين بتنفيذ الأحكام .

كما وجد هؤلاء الباشوات أيضا أنفسهم في مواجهة طائفة الرياس "وفي مواجهة قائد الطائفة الغني والمراعى جانبه من الباب العالي، فإن الباشا "كان في الغالب صورة لا قيمة لها" كما كتب بيار بوايي Pierre Boyer.[365]

سُلب الباشا تدريجيا من صلاحياته، وكان الميدان الوحيد الذي بإمكانه التصرف فيه بحرية هو إدارة السكان، فهو مسؤول عن المالية، وخاصة رواتب الأوجاق، وحتى هذا الميدان سينتزع منه بعد فترة زمنية.[366]

استغل الباشوات فترة حكمهم القصيرة وقاموا بتجميع ثروات طائلة[367] تاركين السلطة الفعلية للبلاد تنتقل تدريجيا إلى الجهاز الوحيد الدائم الذي تمتلكه الميليشيا التركية وهو ديوان الإنكشارية، كما استفادت طائفة الرياس من اضمحلال سلطة الباشا فارتقى قادتها.[368]

والواقع أن الباشا لم يعد إلا شخصية رمزية، ومع ذلك ورغم الفوضى التي تميز بها عهد الباشوات إلا أنه لم يتم تصفية هؤلاء جسديا مثلما ما سيحدث في الفترات اللاحقة.[369]

والملاحظ أن الديوان وممثليه العسكريين الذين أرادوا إخراج البلاد من فوضى عهد الباشوات سيدخلونها في فوضى أخرى، فقد اشتد الصراع بين الضباط الكبار للاستئثار بالحكم.[370]

---

[362] – إبراهيم حسنين: سلاطين الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2014، ص 362.

[363] – مصطفى أرمغان: المرجع السابق، ص ص 97 – 99.

[364] – Tal Shuval,: la ville d'Alger vers la fin du XVIIIé siècle : population et cadre urbain , Paris, C.N.R.S ,1998 p 20.

[365] – Boyer : Des pachas triennaux a la révolution d'Ali Khodja Dey "1571-1817" in R.H. n° 495,1970. , p 99-101.

[366] – Ibid , p 101

[367] – Emerit : Un mémoire sur Alger par Pétis de la Croix (1695), in A.I.E.O., t XI 1953., p 9

[368] – Boyer : Des pachas triennaux, p 103-104.

[369] – Shuval : Op cit, p 20 .

و نجم عن الضغط الممارس من طرف الأوجاق على الباشوات أن لجأ أحدهم وهو "خضر باشا" للقيام بمحاولة جريئة لكبح جماح الميليشيا وذلك بالاستعانة بالعناصر المحلية والكراغلة وذلك سنة 1596 .[371]

ويضاف إلى الفوضى السياسية التي عرفتها البلاد تعرضها للوباء ثلاث سنوات متتالية حتى سنة 1607، كما تعرضت للمجاعة، وعرفت الفترة التي سبقت تولي المولى علي للحكم أزمات سياسية واقتصادية خانقة، حيث أرسل الباب العالي عددا من الباشوات لم تتجاوز مدة حكم الواحد منهم سنتين إلا نادرا ، وآخر من تولى كان حسين باشا سنة 1023 هـ/ 1614 م، لكن فترة حكمه لم تدم سوى سنتين حيث عُزل وسُجن في 29 رمضان 1025 هـ/ 1616 م، والراجح أن عزله كان بسبب عجزه عن دفع رواتب الجند، حيث قام بحملة عسكرية على المغرب في تلك السنة تطلّبت منه أموالا كبيرة.

وهنا تدخّل الباب العالي لتعيين أحد ممثليه وهو المولى علي أفندي لوضع حد لتمرد انكشارية الجزائر[372] وذلك بعد قيام الأخير بدفع مبلغ كبير من المال للصدر الأعظم وكبار موظفي الديوان الهمايوني، فقد كان منصب الباشا من المناصب التي تباع ، حيث أن الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا" ت 1579 " فرض على حكام الولايات أن يعيدوا شراء مناصبهم كل عام، بعد أن كانت عملية الشراء تتم سابقا مرة واحدة عند التعيين في المنصب أول مرة.[373]

توليته وظروف عزله ونكبته :

ذكر ابن المفتي أن المولى علي تولى حكم الجزائر ثلاثة أيام من يوم 29 رمضان 1025 هـ/1616 م إلى يوم 02 شوال من نفس السنة حيث عزل و تولى مكانه مصطفى باشا كاتب سليمان باشا الذي حكم سنة واحدة.[374]

والغريب أن توليته الحكم لم تشر لها على حد علمنا سوى المصادر الثلاثة التي رجعنا لها، فقد وجدنا غالبية المصادر والدراسات لا تورد خبر توليته، وقد يُفسّرها البعض بقصر فترة حكمه، لكن هناك من حكم فترة قصيرة ووجدنا اسمه ضمن قائمة الحكام.[375]

---

[370] - De Grammont : Histpoire d'Alger sous la domination turque, Paris, Ernest Leroux, 1887, p 134-135.

[371]- شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2 ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر 1978، ص 352.

[372] - ابن المفتي: المصدر السابق، ص 46.

[373] - أمين محرز: الجزائر في عهد الآغوات"1659 - 1671" دار البصائر، الجزائر،2011، ص 41 – 42.

[374] - المصدر نفسه، ص 46.

[375] - يمكن الرجوع إلى قوائم الباشوات التي أوردها كل من :

_ابن حمادوش: الرحلة، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، ش.و.ن.ت، الجزائر 1983، ص 229 – 230.

_Alphonse Rousseau : Chronique de la régence d'Alger,imp de la gouvernement,Alger, 1841 p 206.

_Joachim Gonzalez: Essai chronologique sur les musulmans celebres de la ville d'Alger, Alger, imp Victor Pézé, 1886 p 34.

_عزيز سامح إلتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ص 662.

تمتّع المولى علي بصيت واسع قبل توليه الحكم، ويؤكد ذلك ما ذكره الفكون انه عند مروره بقسنطينة هرع إليه واليها حينذاك، وعسكرها وعظّموه تعظيما يليق بمكانته، كما أنه أتى للجزائر رفقة عدد من الشخصيات النافذة لدى الباب العالي.[376]

وحسب فايسات الذي يعتمد على وثائق محلية نادرة، فإن الباي الحاكم حينها في قسنطينة هو حسن باي الذي توفي في وباء الطاعون الذي اجتاح قسنطينة وبسكرة، "وفيه أصيب حسن باي المشهور والمغفور له، وتوفي في يوم ثلاثاءٍ من العشر الأواخر من شهر ذي القعدة من عام 1031هـ /أوائل شهر أكتوبر 1622م[377].

ومن كلام الفكون يبدو أن استقراره بمدينة الجزائر كان قبل توليه الحكم، حيث "صار له صيت عظيم" ولعل ذلك كان بأمر من السلطان العثماني، بصفته قاضيا حنفيا وهي الصفة التي لازمته فيما بعد، فقد مارس العلماء الأحناف والمولى علي واحد منهم إلى جانب دورهم العلمي، دورا سياسيا يتمثل في مراقبة باشاوات الجزائر، أي أنهم كانوا عيونا للسلاطين على هؤلاء الذين أصبحوا لا يطيقون وجود هؤلاء العلماء إلى جانبهم.

ومن مظاهر هذا التدخل أن أصبح المفتي الحنفي مُكلّفا بقراءة الواجبات الملقاة على عاتق الباشا الجديد بمجرد تعيينه في منصبه ، ومنها "أن الله كلفه بحكم هذا البلد وقيادة جيشها، وأن عليه معاقبة الأشرار ومكافأة الأخيار، والمحافظة على تسديد منتظم لأجور الجنود، وبذل قصارى جهوده لحفظ الأمن وازدهار البلاد، وتحديد أسعار مناسبة للحبوب حتى تكون في متناول الفقراء من السكان[378].

و يذكر الفكون أن المولى علي "استقل أياما بالإمارة وصدر الأمر عن نظره وتزوّج بها" أي بمدينة الجزائر، وهو أمر نادر الوقوع بين حكام الجزائر الذين كانوا إمّا يجلبون زوجاتهم معهم من بلادهم الأصلية، أو يحافظون على عزوبيتهم، ولعل هذا ما أثار حفيظة الانكشارية ضده.

وكان للمولى علي ثروة طائلة، ولكن على غير عادة الباشوات لم يقم بجمعها في الجزائر، حيث أنه لم يمكث بها طويلا ، و يفيدنا الفكون أنه "امتُحن" بسببها بمعنى أنه عُذّب و سُجن، واستولى الانكشارية على ثروته، ولم يسمحوا له حتى بلقاء زوجته.[379]

و سارع عسكر الجزائر إلى عزله في اليوم الثاني لعيد الفطر، لأن ذلك العيد كان مناسبة كبرى يفد فيها مختلف قناصل الدول الأوروبية لتهنئة حاكم البلاد وتقديم الهدايا له،[380] ومن هنا تأكيد الاعتراف الدولي بولايته،

_عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص141.

[376] – يضيف فايسات بخصوص ذلك الباي :"لقد تأكد وجود هذا الباي بورود اسمه في عقد ملكيةٍ خاصٍ بعائلة بن عزوز شريف من ميلة، وهو عقدٌ محررٌ من طرف مجلس قسنطينة في عام 1037هـ (1628م). وبذلك نستطيع أن ندرج هذا الباي، بكل تأكيدٍ، ضمن البايات الذين قادوا المقاطعة في بداية السيطرة التركية، ينظر: أوجين فايسات: تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية ، ترجمة وتقديم: أحمد سيساوي، تحت الطبع، ص 66 – 67 .

[377] – فايسات: المرجع نفسه، ص 67.

[378] – محمد بوشنافي: علماء المذهب الحنفي في الجزائر خلال العهد العثماني(10 – 13 هـ/ 16 – 19 م) مجلة عصور الجديدة ، ع 16– 17، أفريل 2014 – 2015، ص 223.

[379] – الفكون: المصدر السابق، ص 227.

[380] – حول هذا الموضوع أنظر مثلا: بليل رحمونة: القناصل والقنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 الى 1830، دار القدس العربي،وهران،2017، ص 91.

وهو ما لم تستسغه الميليشيا التركية في الجزائر، فسارعت لتعيين باشا آخر لحكم البلاد من الموظفين الإداريين السابقين وهو مصطفى باشا الذي عمل كاتبا لدى سليمان باشا.

ولا شك أن الميليشيا التركية في الجزائر قد استغلت الظروف التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، وبُعد المسافة بين الجزائر واسطنبول مما يعيق أي رد فعل سريع من جانب الباب العالي.

استقراره بتونس ونهايته:

بعد عزله من حكم الجزائر نُفي المولى علي إلى تونس،[381] ويبدو أن الباب العالي تدخّل هذه المرة لرد الاعتبار لممثله، فتقرّر تعيينه قاضيا حنفيا للبلاد التونسية، وهو ثاني شخصية تُعيّن في هذا المنصب الهام بعد المولى حسين أفندي الذي ولاه سنان باشا،[382] وهنا بدأت مرحلة مأساوية أخرى من حياته أدت إلى مقتله، حيث يذكر حسين خوجة أنه لما تمت مدته في القضاء، وهي ثلاث سنوات حسبما جرت عليه العادة " 1616 – 1619" توجّه إلى مدينة بنزرت الساحلية فأقام بها أياما يترصد مركبا يسافر معه إلى بلاده، لكنه تعرّض للاغتيال من مملوكه،[383] و لا شك أن ذلك كان مخططا له من العسكر للتخلص من المولى علي نهائيا، الذي يبدو ذو شخصية قوية شكلت لها مصدر إزعاج، وكانت تونس حينذاك تحت حكم يوسف داي" 1610 – 1637 " الذي وصفه المؤرخون بقولهم:" وانتشر عدله في الرعية وأهل البلاد، وحسن الثناء عليه."[384]

خاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الموضوع خلصنا إلى النتائج التالية:

- كانت علاقة أوجاق الجزائر بالباب العالي بين مد وجزر، وتتحكم فيها الظروف الدولية وواقع الدولة العثمانية، ويميزها حرص الجانبين على إبقاء حبل المودة قائما لحاجة الطرفين لبعضهما في ظروف الأزمات الدولية.
- جاءت تولية العالم المولى علي أفندي في ظروف عصيبة كانت تعيشها الجزائر، وكانت بمثابة محاولة من الباب العالي لاستعادة نفوذه في هذه الولاية من غربي المتوسط.
- رغم أن المولى علي تم تعيين برغبة خاقانية إلا أن ذلك لم يشفع له، حيث أن الميليشيا أزاحته بعد أيام قليلة في خضم صراعها للاستئثار بالحكم، والذي توج سنة 1659 بتولي الآغوات الحكم وطرد الممثل الشرعي للباب العالي.
- إن عدم جرأة الميليشيا في الجزائر على التصفية الجسدية للمولى علي يؤكد حرصها على عدم إثارة نقمة الباب العالي، واكتفت بمصادرة أملاكه ونفيه.

---

[381] – الفكون: المصدر السابق،ص 227، حسين خوجة: المصدر السابق،ص 169.

[382] – محمد بن عثمان السنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف، ج 3، تحقيق وتعليق: محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1994، ص 63.

[383] – حسين خوجة: المصدر السابق،ص 169.

[384] – المصدر نفسه، ص 92 – 93.

- جاء تعيين المولى علي في منصب ديني رفيع في الولاية التونسية كدليل على سعي الباب العالي لفرض إرادته في الجزء الغربي من البحر المتوسط.
- يعد المولى علي نموذجا واحدا من بين النماذج الكثيرة لعلماء تولوا الحكم في الجزائر، وعكسوا النظرة النمطية لاحتكار العسكر لشؤون الحكم، فقد تولى بعده فيما بعد حكام علماء وآخرون يقدرون العلم أمثال يوسف باشا الذي كانت له مراسلات مع العالم ساسي البوني، ومحمد بكداش الذي كان تلميذا لأحد علماء الجزائر، والداي محمد عثمان باشا داي الجزائر الذي كان يقدر العلم والعلماء.
- لا يزال الكثير من العلماء الأعلام في الجزائر خلال العهد العثماني مغمورين لم تُسلّط عليهم الدراسات المعاصرة الضوء، رغم مكانتهم العلمية، والأدوار التي لعبوها في عصرهم، وليس المولى علي إلا واحدا من هؤلاء ، وقد رغبنا في تقديم لمحة مقتضبة عن حياته وإسهامه انطلاقا من مادة مصدرية شحيحة وصامتة في غالب الأحيان، وذلك في انتظار ظهور وثائق جديدة ودراسات تركّز على مثل هذه المواضيع التي تُعنى بالتاريخ الديني للجزائر خلال الفترة العثمانية.